التجربة الحضارية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين إبّان الفترة الاستعمارية

أ/ عوادي عبد القادر عزام
جامعة الوادي

مقدمة:

ساد المجتمع الجزائري ، خلال العهد العثماني، نوعا من العلاقات التراحمية التي ميزتها تلك المؤسسات الدينية المتمثلة في الزوايا والطرق الصوفية أو في المؤسسات الاقتصادية التي مثلتها مؤسسات الوقف المتنوعة والمتعددة والتي كانت كلها تخدم مصالح المجتمع سواء في جانبها الاجتماعي أو الثقافي والعلمي، ولكن مع دخول الاستدمار الفرنسي الى الجزائر قضى على كل تلك المظاهر الحضارية التراحمية التي صبغت المجتمع الجزائري.

فبدأ عهد جديد طغت فيه الغطرسة الاستعمارية في كل المجالات، فقضى على مؤسسات التعليم والمدارس، وغير المناهج التعليمية بما يخدم مصالحه الاستعمارية، ولقد أثر ذلك بشكل كبير في المجتمع الجزائري حيث سادت فيه الأمية والجهل وحاول الاستعمار تغيير اللغة العربية بالفرنسية وذلك موازاة مع نشر المؤسسة المسيحية الكاثوليكية الدين المسيحي في أوساط الجزائريين.

وبعد مرور مئة عام عن الاحتلال أقام الاستعمار الفرنسي حفلا ضخما بهذه المناسبة وظن في نفسه انه قد تم له ما كان يريد ولم تمر سنة واحدة على هذه الاحتفالات حتى تأسست في يوم 5 ماي 1931 جمعية دينية علمية تهذيبية تثقيفية، وهي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يسيرها ويشرف عنها ثلة من علماء الجزائر العاملين، ولقد كان برنامجهم هو التوغل في عمق المجتمع الجزائري وبداية نشر التعليم واللغة العربية والدين الاسلامي والعقيدة الصحيحة السليمة التي شوهها الاستعمار وبعض أذنابه من الطرقيين.

وكانت هذه الجمعية ذات مشروع حضاري عظيم حاولت من خلاله اخراج المجتمع الجزائري من غبنه ومن جهله واميته، عن طريق المدارس وعن طريق الصحافة وعن طريق الكتب، والمحاضرات والدروس والبعثات العلمية وغيرها من المشاريع التي قامت بها هذه الجمعية المباركة.

المجتمع الجزائري قبيل تأسيس جمعية العلماء:

إن الدارس للمجتمع الجزائري قبيل دخول الاحتلال الفرنسي للجزائر، يلاحظ وبشكل واضح مدى تطور الحالة الثقافية مقارنة بالوضع الثقافي والعلمي في دول اوروبا والحوض الشمالي للبحر

الأبيض المتوسط، ويكتب في هذا الموضوع الرحالة الألماني «فيلها لم شيمبرا» الذي زار الجزائري في شهر ديسمبر سنة 1831م، أي في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر حول حالة التعليم فيقول التالي: « لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر لا يجيد القراءة والكتابة، غير اني لم أعثر عليه في حين اني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب. ومن الانصاف أن نقول ان الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية إلى استخدامهم في الوظائف العمومية»[1]

فنلاحظ من خلال هذه المشاهدة الحية التي عاشها هذا الرحالة الألماني الوضع التعليمي والثقافي بشكل عام التي كان يعيشه المجتمع الجزائري في العهد العثماني وبداية الاحتلال، ونحن ندرك أن الوضع الثقافي هو صورة المجتمع الحضارية، وهناك الكثير من الكتابات التي تحدثت عن هذا الجانب وعن اهتمام الجزائريين بالحياة الثقافية والعلمية وحفظ القرآن الكريم وعلومه، وتخصيص الأموال والعقارات من أجل هذه المشاريع والتي تمثلت في مؤسسات الوقف الخيرية[2].

منذ أن وطئت أقدام المستعمر الغاشم أرض الجزائر يوم 14 جوان 1830م من سواحل سيدي فرج، وما أن سقطت مدينة الجزائر بيد القائد العسكري دي بورمون بعد توقيع معاهدة الاستسلام مع الداي حسين يوم 5 جويلية 1830م، حتى انطلق الجيش الفرنسي في تدمير كل مقومات معالم الدولة الجزائرية، ومسخ الهوية الوطنية والاسلامية والعربية في الجزائر.

لقد كانت السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، ترتكز على أهداف مسطرة جعلت من التعليم الخاص بالجزائريين وسيلة مثالية لتجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلامية والتعلق بفرنسا التي لا تقهر، استمرت هذه الوضعية حتى بداية القرن العشرين، الشيء الوحيد الذي ظهر جديدا في الميدان، هي القرارات الوزارية التي أصبحت تتهاطل تلقائيا، ففي مطلع القرن العشرين بدأت القرارات تظهر على الساحة الجزائرية، حيث طالب في 21 مارس 1908 «مؤتمر الزراع الفرنسية بالتضييق على تعليم الجزائريين، وفي08 مارس 1939، أصدر وزير المعارف الفرنسي « شوتان» قرار ينص على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، ويمنع تعليمها تبعا لذلك في المدارس، وفي22 جويلية 1945 ، أصدرت السلطات الفرنسية قرار يفرض على كل معلمي اللغة العربية معرفة اللغة الفرنسية، كشرط أساسي لتوظيفهم في المدارس، واستهدفت من وراء هذا القرار القضاء على الجهاز العربي وتحطيم كيانه، لأنها تعلم أن معظم أولئك المعلمين لا يحسنون الفرنسية أصلا[3].

لقد أحدثت مثل هذه القرارات، ومثلها التي تلت الاحتلال مباشرة، اضطرابا كبيرا في وسط الجزائريين، وفوضى في صفوف رجال العلم بالجزائر، الذين اختار منهم الكثير الرحيل نحو البلدان الإسلامية المجاورة لحماية ثقافتهم، كما أن هذه القرارات، أظهرت نوعا من التلاعب بالرأي العام من حيث جدية فرنسا في تعليم رعاياها.

فلقد عرف عدد المتمدرسين الجزائريين ارتفاعا طفيفا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، بعد أن كان قد وصل سنة 1938 إلى 106000 متمدرس من بين 1270000 ممن كان من المفروض أن يدخلوا المدارس، هذا الارتفاع لم يكن بسبب جهود السياسة التعليمية الفرنسية، و لكن بسبب التزايد الديمغرافي الذي كانت تشهده الجزائر، وعندما طرح بعض الأحرار الفرنسيين سؤالا خجولا، عن إمكانية تسهيل التعليم للجزائريين في إطار مدرسة العشر سنوات الأولى، فقام رجال السلطة بفرنسا و المستوطنين معا باستحالة ذلك، معللين قولهم

بأن تكلفة بناء مدارس إضافية، وتجهيزها بالوسائل والمدرسين ، تزيد عن ميزانية الجزائر أضعافا عدة، ولا فائدة من وضع البرامج الطويلة الأمد، فسكان الجزائر حسب رأيهم، لا يتوقفون عن الولادة، بحيث أن الأمر لن يكون سهلا بعد عشر سنوات أفضل مما هو عليه الآن، ومنه فإنه لا يمكن إيجاد حل لمشكلة المدارس في الجزائر، مع أن الفرنسيين لا يكفون عن الترديد بأنهم موجودون في الجزائر لنشر الحضارة فيها[4].

إن الهدف الذي كان يرمي إليه الاستعمار، هو تكوين نخبة مزيفة من المثقفين، مقطوعة عن الجماهير الشعبية، بحيث يشعر أولئك المثقفون بأنهم غرباء بين ذويهم، فتنقطع صلتهم بأبناء البلاد، ويتنكرون للتقاليد والعادات الوطنية ويصابون بما سماه ''جول غوتي'' '' الباقورية العقائدية'' وهو نوع من التبعية الفكرية، إذ يحاولون دائما أن يحتذوا حذو الأجنبي، وأن يتقمصوا شخصية أجنبية لا تمت صلة لشخصيتهم الأصلية، ومن نتائج هذه السياسة التعليمية، اضطراب الفكر لدى الإنسان، وعدم توازن آرائه وضياعه وسط الآراء المتناقضة، التي تؤدي إلى افتقاد كلي لعناصر شخصيته، دون أن يستطيع إدراك وتعلم مبادئ شخصية وثقافة المؤثر فيه[5].

لقد كانت مشكلة التعليم بالجزائر مشكلة أجيال الجزائر كلها، ويدفع الأطفال الذين لا يزورون المدارس ثمنها، بحيث لم تتجاوز نسبة التعليم بين أبناء الجزائر على أكثر تقدير 8% من جملة الأطفال الذين هم في سن التعليم، وتقل هذه النسبة كلما صعدنا في سلم التعليم في المراحل الأخرى، ولذلك كانت نسبة الأمية منتشرة بين الجزائريين انتشارا كبيرا، بحيث لم تكن تقل عن 95% بين الرجال وعن 99% بين النساء، وبهذه النسب التي كانت مستفيدة من التعليم، كانت البرامج المسطرة لتعليمها تسير وفق المصالح الاقتصادية والسياسية للإدارة الاستعمارية، ولذلك فإن معظم الأطروحات الموجهة للمتمدرسين الجزائريين كانت تدعوا إلى تمجيد الغرب على حساب الشرق، وتأييد الفكر الأوربي المنتصر على الفكر العربي ، كما كانت تدعوا إلى ضرورة التعلق بمبادئ فرنسا والدفاع عنها كمحاولة لخلق نخبة جزائرية يكون دورها الأساسي هو الدفاع عن الوجود الفرنسي بالجزائر ، والحفاظ عليه والعمل على استمراريته بتلقين مبادئ الثورة الفرنسية لجيل الجزائر، من جهة نظر ضيقة ومحصورة في أن لجنس الأوربي هو أرقى الأجناس على الإطلاق، ولا جدوى لمعارضة أراء منظري السياسة الفرنسية بالجزائر[6].

فمن خلال هذه الأسطر تظهر الرسالة الاستعمارية التي كانت تزعم أنها جاءت الى الجزائر لنشر المدنية والحضارة الغربية، فبعد أن كانت الثقافة منتشرة بين أفراد وأبناء المجتمع الجزائري أصبحت الأمية متفشية وبصورة رهيبة في كل فئاته، ناهيك عن المظاهر الحضارية الأخرى التي بدأت الترسانة الاستعمارية تعمل حول هدمها ومسخها، خاصة ما يمس الهوية والانتماء والعقيدة واللغة.

الاحتفالات بالذكرى المئوية للاستيلاء على مدينة الجزائر:

تعتبر هذه الاحتفالات بمثابة الصعقة الكهربائية التي استيقظ منها جسم المريض الآيل للموت، فبعد مرور مئة سنة من احتلال الجزائر استعدت السلطات الاستعمارية للاحتفال بهذه الذكرى «السيئة»، وتم بهذه المناسبة اعداد عشرات الاحتفالات والمهرجانات وخصصت عشرات الملايين من أجل الدعاية لهذه الاحتفالية[7]، التي كان الغرض منها اثبات ان الجزائر أصبحت قطعة فرنسية ويدخل في هذا التعليق انها تخلت عن عقيدتها ولغتها وهويتها ومسخت في الحضارة الغربية.

وبهذا الصدد يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر

في هذه الذكرى: « إننا لن ننتصر على الجزائريين، ماداموا يقرأون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم»[8]، فهنا تظهر مدى الحقد الصليبي الذي عشعش في عقول وقلوب هؤلاء الفرنسيين الذين كان همهم الوحيد في الجزائر هو طمس معالم الدين الاسلامي واللغة العربية، وجعل الفرد الجزائري والأمة الجزائرية بلا روح ولا هوية.

فبعد هذه الاحتفالات توقدت في نفوس ثلة من علماء الجزائريين المبثوثين في القرى والمداشر والمدن الغيرة والحمية عن الدين واللغة والوطن، واشتعلت في نفوسهم مصابيح لإنارة المجتمع والأمة الجزائرية البائسة.

وبناء على رواية الشيخ أحمد توفيق المدني في ظروف تأسيس جمعية العلماء، أن جماعة من ذوي الاتجاه الاصلاحي كانوا يترددون على نادي الترقي لمناقشة الأوضاع التي آلت اليها البلاد خاصة بعد الاحتفالات بالذكرى المئوية، واعتبر هؤلاء المصلحون تلك الاحتفالات مجالا فسيحا للمتعصبين الفرنسيين الذين هاجموا الاسلام والمسلمين بشدة، ثم يذكر المدني أنه اجتمع مع ثلاثة من المصلحين في شهر جويلية 1930م وناقشوا بصراحة الآثار المؤلمة التي تركتها الاحتفالات على الرأي الإسلامي في الجزائر وأجمعوا أخيرا على تأسيس هيئة للعلماء تجمع شملهم وتوحد جهودهم[9].

فمن خلال هذه الومضة التاريخية عن المجتمع الجزائري قبيل ظهور جمعية العلماء خاصة في المجال الثقافي والعلمي يتبين لنا انها كانت جد متدهورة، وان الفرد الجزائري كان يعيش في أسوء ظروفه التاريخية بسبب الترسانة الصليبية الحاقدة عليه وعن دينه ولغته، وبعد أن ظن الفرنسيون أنهم تحكموا في الوضع الجزائري وبدأت احتفالاتهم تعم أرجاء الجزائر واعلامهم يصدح للعالم بتفوقهم «الحضاري» في الجزائر، تنبت في الجزائر نبتة سوف تثمر في غضون سنوات من الزمن ثمارا يانعة تشفي غليل الجزائريين الذين اضمحلت اوضاعهم بشكل سيء، فكانت هذه النبتة هي جمعية العلماء المسلمين، وثمارها تمثلت في زعماء الاصلاح الذين انتشروا في كل حدب وصوب ينشرون الفكرة.

تأسيس الجمعية وأهم رجالها:

1- تأسيس الجمعية:

إنّ الحديث حول تأسيس الجمعية وظروفها يطول ويحتاج للكثير والمراجع والمصادر التي تناولت هذا الأمر متوفرة، لذلك سوف نجمل الحديث في أهم مراحل تأسيسها وأهم أعلامها الذين كان لهم الأثر في دعوتها ورسالتها الحضارية الانسانية التي أيقظت الفرد الجزائري من سباته العميق نحو العمل والسباق مع الزمن والحال من أجل إخراج مجتمعه من بوتقة الجمود والركود البائسة.

جميعنا يعلم أن يوم 5 ماي 1931م هو تاريخ تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولكن أغلبنا لا يعلم أن هذا التاريخ كان النتيجة وليس البداية، فهو ثمرة جهود عدة مراحل من العمل الاصلاحي، فنجد أن لقاء الشيخان عبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمي في الحجاز كان اللبنة التي مهدت الطريق لتأسيس هذه الجمعية فيقول الابراهيمي في هذا الأمر: « كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج الى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس، منفردين الى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها بالمدينة المنورة... كانت هذه الأسمار المتواصلة، كلها تدبيرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر ووضع البرامج المفصلة لتلك

النهضة الشاملة التي كانت كلها صورا ذهنية تتراءى في مخيلتينا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913 ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة 1931م)[10].

بعد أقل من سنة على مرور الاحتفالات المئوية للاستعمار الفرنسي، والتي كانت بمثابة الشرارة التي ساعدت على اخراج نشاط جمعية العلماء وهيكلها إلى النور، فلقد تم عقد الجلسة التمهيدية لوضع أسس وهيئات الجمعية صبيحة يوم الثلاثاء على الساعة الثامنة صباحا الموافق 5 ماي 1931م[11].

وقد حضر حفل التأسيس 72 عالما وشيخا من مختلف القطر الجزائري، وكان على رأسها عمر اسماعيل وكان الاجتماع يهدف إلى وضع القانون الأساسي للجمعية، فعينوا رئيسا مؤقتا وهو الشيخ أبو يعلى الزواوي، والكاتب العام محمد الأمين العمودي، وحضر هذا الاجتماع من كل الأطياف سواء منهم الطرقيون والمصلحون وفي هذا الصدد يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: « ولعل هذه المرونة في جمع الكلمة وتوحيد الصف هي التي جعلت الادارة الفرنسية تسارع الى الاعتراف بالجمعية وتوافق على قانونها الأساسي بعد خمسة عشر يوما فقط من تقديمه وكان تأسيس الجمعية على هذا النحو يعتبر «شهر عسل» بالنسبة لرجال الدين عامة وهو الشهر الذي استمر عاما فقط كما سنرى لأن أهداف الجميع لم تكون واحدة، ومهما كان الأمر فقد تقبل الرأي العام تأسيس الجمعية بغبطة، واستبشر بها الوطنيون لأنها ولدت بعد الاحتفال المئوي بالاحتلال فكانت تمثل سطعة الأمل بعد ظلام اليأس»[12].

وفي نفس اليوم الأول تم الاجتماع الثاني في المساء لاختيار الهيئة الادارية، وانتخب عبد الحميد بن باديس رئيسا غيابيا، ومحمد البشير الابراهيمي نائبا له، والكتابة العامة محمد الأمين العمودي ومساعده الطيب العقبي، وأمين المال لمبارك الميلي ومساعده الشيخ ابراهيم بيوض، كما ضمت الجمعية في مجلسها الاداري الأول ممثلين عن 6 زوايا وطرق صوفية[13].

وتكوّن القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من ثلاثة وعشرون فصلا، وجاء في الفصل الرابع ما يلي: « القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية، كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل»[14].

فنلاحظ أنه من خلال تاريخ تأسيس الجمعية، وأيضا أهم رجالها وادرييها وقانونها الأساسي، تتضح لنا معالم طريق هذه الجمعية، طريق بناء النهضة الاصلاحية، واعادة احياء الأمة الجزائرية، طريق لإعادة الاسلام واللغة العربية والهوية الوطنية.

2- أهم رجال الجمعية:

لن نخوض كثيرا في ترجمات لرجال جمعية العلماء المسلمين، لأنهم كثيرون هم الصادقون والمخلصون والعاملون في حقلها، لكن سوف نعطي أمثلة فقط عن بعض مواقفهم ونشاطاتهم في خدمة المسار الحضاري وبناء الأمة الجزائرية في ظروف استعمارية مأساوية.

1- الشيخ عبد الحميد بن باديس:

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس منذ سنواته الاولى لطلب العلم يحمل في صدره الكثير من الأحلام والأهداف لخدمة أمته، وتعرفنا كيف انه كان يخطط رفقة رفيق دربه محمد البشير الابراهيمي وهو بعيدا في بلاد الحجاز، يخططون لإحياء الامة والطرق والسبل المثلى لفعل ذلك.

وبعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين تعرض عبد الحميد بن باديس للكثير من المضايقات سواء منها من طرف الادارة الاستعمارية التي تأكدت من خط الشيخ وهدفه الاصلاحي الجهادي، أو من أولئك الضالة قلوبهم من أصحاب الضلالات، ولعل من أبرز المواقف التي اذهلتني في مسيرة الشيخ ووقوفه كالجبل الشامخ في وجه العدو وتيقنه الكبير بنجاح مشروعه الحضاري والعلمي والفكري الذي سوف ينير الجزائر والجزائريين، فيروي تلميذه محمد الطاهر فضلاء: انه بعد تأسيس الجمعية ومعرفة خطها الاصلاحي والجهادي استدعى الوالي العام بقسنطينة «ميرانت» الشيخ بن باديس ووالده مصطفى، وعرض على الشيخ أن يختار أي وظيفة يريدها (مفتي أكبر، قاضي قضاة...) على شرط واحد وهو أن يتخلى عن رئاسة جمعية العلماء التي وصفها ميرانت بأنها مجموعة من الحثالة وأنها ليست في مقام الشيخ بن باديس حتى يتولى رئاستها، وحاول الشيخ الرد عليه ولكن والده وقف امامه باكيا وملحا عليه بقبول العرض لأنه كان في حالة اقتصادية بائسة وأسرته مقبلة عن الافلاس، فرجاه أن يقبل العرض لتساعدهم الحكومة الفرنسية بمنحة مالية ترفع عنهم الضيق المالي، فطلب بن باديس فرصة للتفكير، وخرج من دار الوالي العام منفعلا وباكليا من جراء الهم والغم الذي ألم به، ولكنه أدرك السر الالهي في هذه المحنة، فكتب في اليوم الموالي إلى الحاكم العام بقسنطينة رسالة بليغة وقوية يقول فيها « اقتل يا ميرانت مصطفى بن باديس واقتل معه عبد الحميد بن باديس، وأقض على كل أسرة بن باديس، ان منحك الله هذه القدرة، ولكنك لن تصل أبدا الى قتل جمعية العلماء بيدي، لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد بن باديس، وإنما هي جمعية الأمة المسلمة، وما أنا فيها إلا واحد، أتصرف باسم الأمة كلها، ومحال أن أتصرف تصرفا أو أقف موقفا يكون فيه قتل الجمعية على يدي، أقول هذا وحسبي الله ونعم الوكيل»[15].

فهذه وقفة بسيطة وحادثة منفردة من مئات المواقف التي واجهها عبد الحميد بن باديس من أعداه وخصومه الخارجيين أو الداخليين، ولكنه كان صاحب مشروع كبير، لم يأبه بهذه العثرات او المطبات التي وجدها في طريقه، وانما جعلها دروسا لقادم الأيام، فكان صاحب مشروع نهضوي يعمل ليل نهار من أجل تنوير وتحرير عقول الجزائريين.

2- الشيخ محمد البشير الابراهيمي:

كان الشيخ محمد البشير الابراهيمي كرفيق دربه بن باديس، يحمل بين جوانحه حركية ونشاطا كبيرا، فكان يتنقل ويسافر ويخاطب ويحاضر ويراسل ويكتب، وكل هذا خدمة للأمة الجزائرية وللحركة الاصلاحية التي بدأت ثمارها تظهر وتينع، فنجد البشير الابراهيمي يسافر ويستقر في الغرب الجزائري وفي مدينة تلمسان بالضبط، وعندما نقول الغرب الجزائري فيعني أننا نتحدث عن منشأ الزوايا والطرق الصوفية، والتي كانت لا تتساير في كثير من أفكارها مع جمعية العلماء ودعوة جمعية العلماء، ولكن جهود الشيخ الابراهيمي كانت عظيمة في ذلك القطاع « القطاع الوهراني» فأخذ يقوم بتقديم الدروس على كل فئات المجتمع من بعد صلاة الصبح وتسمتر دروسه إلى غاية صلاة العشاء، وكله حرص على رفع الحالة الجهل والأمية على المجتمع الجزائري، ولقد كان من نتائج هذه الحركة الإصلاحية الي تزعمها الشيخ الإبراهيمي هو افتتاح مدرسة خاصة بالتعليم، وأقيم حفل ضخم حضره رجال الجمعية البارزين وعلى رأسهم رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان افتتاحها الرسمي في يوم 27 سبتمبر 1937م، وفي هذا يكتب الشيخ مصطفى بن حلوش حول تغطيته

لهذا الحفل « لم تشهد تلمسان في تاريخها الحديث يوما أبهج ولا أروع ولا أجمل ولا أمتع، من يوم 22 رجب من هذه السنة، ذلك الوم الذي تفاطرت وفود القطر من كل ناحية لشهود افتتاح مدرسة «دار الحديث» والتي قامت على جهود أخينا الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي وعلى كرم أهالي تلمسان خصوصا وجود الأمة الجزائرية عموما...، وواصل الضيوف سيرهم حتى وقفوا على باب المدرسة فوقف الأستاذ الابراهيمي يخاطب الأستاذ رئيس الجمعية وهو يناوله المفتاح بهذه الكلمات البليغة: «أخي الاستاذ الرئيس لو علمت في القطر الجزائري بل في العالم الإسلامي رجل في مثل حالتك له يد على العلم مثل يديكم وفضل على الناشئة مثل فضلكم، لآثرته دونكم بفتح هذه المدرسة ولكنني لم أجد، فباسم تلمسان وباسم الجمعية الدينية بالخصوص أناولكم المفتاح فهل لهذه المدرسة أن تتشرف بذلك؟، فتناول الأستاذ الرئيس المفتاح وقال: باسم الله الرحمن الرحيم ثم باسم الاسلام والعروبة والعلم والفضيلة، أفتح مدرسة دار الحديث» ولقد أقيمت العديد من النشاطات في هذه الاحتفالية العلمية التي أثثها جمع من العلماء الجزائريين من مختلف ربوع الوطن[16].

وكان لمدرسة دار الحديث دور كبير في النهضة العلمية والاصلاحية بمدينة تلمسان وفي الغرب الجزائري بصفة عامة، ولقد كان لها دور كبير في تعليم المرأة واهتمامها البالغ بهذا الأمر، حتى تم فتح مدرسة خاصة بتعليم الفتاة بجوار مدرسة دار الحديث نظرا للعدد والاهتمام الذي كان في تلمسان بتعليم الفتاة وهي مدرسة عائشة أم المؤمنين.

المشروع الحضاري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لمعرفة المشروع والرسالة الحضارية التي أتت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يجب علينا معرفة أصولها وخطها ورؤيتها في خدمة المجتمع والأمة الجزائرية، وهذا ما صرح به رئيسها مكتبها الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة في يوم الجمعة 14 ماي 1937م، عندما أعطى عشرين نقطة ركز فيها رؤية ورسالة جمعية العلماء ولعل من أبرز هذه النقاط هي:

اولا –الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنه:

–1يدعوا الى الأخوة الاسلامية بين جميع المسلمين، وبين الأخوة الانسانية بين جميع البشر.

2 –يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الانسانية بين جميع الأجناس والألوان.

3 –يدعوا إلى الاحسان العام.....

ثانيا: القرآن هو كتاب الإسلام

ثالثا: السنة الصحيحة هي تفسير وبيان للقرآن.

ويذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس جملة من النقاط الخاصة بدعوة جمعية العلماء وأصولها الدعوية لخدمة رسالتها حتى يصل إلى:

–ندعوا إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان.

–عند المصلحة العامة من مصالح الأمة، يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وبالصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة[17].

وأيضا اذا أخذنا الفصل الأول والفصل الرابع والخامس والسادس من القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين يتضح أكثر سير وخط الجمعية، ورؤيتها الحضارية النهضوية للمجتمع

الجزائري من عمقه ومن أساس مشكلته ألا وهي مشكلة الأفكار كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي.

فنجد الفصل الأول يذكر: « تأسست في عاصمة الجزائر جمعية إرشادية تهذيبية تحت اسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مركزها الاجتماعي بنادي الترقي.

أما الفصل الرابع فنجد: «القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية، كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها العمل.

وجاء في الفصل الخامس: « تتذرع الجمعية للوصل إلى غايتها بكلّ ما تراه صالحا نافعا لها غير مخالف للقوانين المعمول بها، ومنها أنّها تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة.

وفي الفصل السادس تكلمت الجمعية عن بعض وسائلها في نشر رسالتها فقالت : « للجمعية أن تأسس شعبا في القطر، وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي[18].

أما مجالات الاصلاح للنهوض بالمجتمع الجزائري عند جمعية العلماء ورجالها فتمثلت في أربعة عناصر مهمة وهي (العقائد، والأخلاق، والأفكار، والأعمال) تصحيحا وتهذيبا وتنويرا وتقويما[19].

وسنذكر جملة من المجالات تدخل جلها في هذه النقاط الأربعة التي كانت محور الاصلاح عند جمعية العلماء، ففي الجانب العقدي حرص الشيخ بن باديس وشيوخ وعلماء الجمعية على تطهير النفوس والعقيدة الاسلامية من كل الشوائب التي ألحقت بها سواء من طرف الاستعمار الغاشم أو من طرف الطرق الصوفية، ولعل من أبرز المشايخ الذين قادوا هذا المجال هو الشيخ الطيب العقبي الذّي هدم تصورات الطرق الصوفية واعتقاداتها الباطلة، وأيضا الشيخ مبارك الميلي من خلال كتاب «رسالة الشرك ومظاهره»، ومساهمة جل رجال الجمعية في هذا الشق من أجل تطهير العقيدة الاسلامية من كل الشوائب والزيادات التي ألصقت بها وأبعدت المجتمع عن عقيدته السلمية الصحيحة[20].

أما النقطة الثانية وهي التعليم فلقد سعت الجمعية إلى فتح المدارس والنوادي في كل قطر من الجزائر، ومما أرق الشيخ بن باديس هو هجران القرآن الكريم والسنة النبوية وتعليم العقيدة الاسلامية للنشء، فحاول وبكل شجاعة واخلاص وجهد أن يقوم بملء هذا الفراغ الرهيب الذي استغله الاستعمار وعمل على تكريسه في المجتمع الجزائري[21]، وفي هذا الميدان سوف نتعرف أكثر العنصر القادم عن دور جمعية العلماء في خدمة التعليم.

وأما النقطة الثالثة فهي حالة العلماء في الجزائر وهو ما أدرك حجم مشكلته بن باديس، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وهم حاملي هم هذه الأمة، فعليهم تقوم النهضة وتستيقظ الأمم أو تتهاوى وتسقط، وكانت الجزائر في تلك الفترة تعيش تقهقرا بسبب السياسة الاستدمارية ومحاربته لكل ما يخص التعليم العربي الاسلامي لدى الجزائريين، وحاول وبكل جهد أن يفرق جمع العلماء عن طريق الدسائس وزرع الفتن، وأيضا من خلال معاونيه من أصحاب الطرق الصوفية ومن المتفرنسين والآخذين بالحضارة الغربية من الجزائريين وضرب محمد بمحمد كما جاء في سياساتهم الجهنمية[22].

كما اهتم الشيخ بكثير من النقاط التي تصب في عمق اصلاح المجتمع كقضية المرأة والشباب واللغة والهوية والسياسة وغيرها الكثير.

وعلى ذكر السياسة فهناك الكثير من الباحثين والمؤرخين الذين عابوا جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين على مشاركتها في المؤتمر الاسلامي وكتب الكثير في هذا الأمر، ولكني لن أخوض في سياق هذا الكلام لأن الموضوع لا يشمله، ولكن سوف أحدد بعض النقاط التي حرصت عليها الجمعية من خلال المؤتمر الاسلامي لكي نعرف خط الجمعية ورؤيتها التي كانت تسعى لها بكل الوسائل المتاحة والمشروعة لها، فنجد على سبيل المثال:

-تسوية النواب الجزائريين بالنواب الفرنسيين في جميع المجالس، ويشارك في الانتخابات جميع سكان الجزائر على اختلاف اجناسهم وعقائدهم مع بقاء المسلمين على جميع ذاتياتهم الاسلامية

- اعتبار اللغة العربية لغة رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتكتب بها مع اللغة الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية.

- تسليم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها، وتتولى أمرها جمعيات دينية

- تأسيس كلية لتعليم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرسين ومؤذنين وقيمين وغيرهم

- تنظيم القضاء بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية، يكون انتخابها تحت اشراف الجمعيات الدينية. هذه والعديد من النقاط الأخرى التي سعت اليها الجمعية من خلال مشاركتها في المؤتمر الاسلامي[23]، وهذا يدلنا وبكل وضوح على مدى سعة فكر الجمعية ورجالها، من أجل ايصال مطالب الجزائريين ومحاولة تجسيد العمل الإصلاحي بكل الطرق المتاحة لهم في تلك الفترة.

ومن خلال تتبع مسار نشاط جمعية العلماء نجد أنهم استوعبوا جدا أزمة العصر، وتفاعلوا مع قضايا الجزائر بإيجابية، ولقد كان الشيخ بن باديس عليه رحمة الله مشغولا طوال تلك الفترة بتربية الرجال والأجيال، وابتعد عن الجدل الفلسفي العقيم الذي يشوش الأفكار ويثير الخصومات بين العلماء والأتباع، فلقد كان ذكيا مستوعبا لآثار أمته وتاريخها الثقافي والعلمي وآثار الرجال من العلماء على مر العصور، فأدرك رحمه الله أن سبب تخلف المسلمين والجزائريين هو تركهم للعلم الصحيح وابتعادهم عن الاسلام بفعل الاستعمار وخدامه من بني جنسنا من طرقيين ومتفرنسين[24].

هذه صورة مختصرة جدا عن الرسالة الحضارية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فترة كانت تحتاج فيها الجزائر لكل رسالة صحيحة سليمة قويمة، في فترة عاث فيها الجهل والفساد والظلم والطغيان، طغيان استعماري بغيض وطغيان طرقي متحجر. ومن خلال جهود تلك الفئة المؤمنة المخلصة بمشروعها وصلت جهود المشروع إلى عمق المجتمع وتحررت العقول وتنورت الأرواح بما صدح بها هؤلاء الرجال من الحق.

وسائل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لخدمة المجتمع:

لكي تحقق الجمعية كل تلك الأهداف والغايات كل لزاما عليها أن تتخذ عدة أساليب ووسائل من أجل ابلاغ رسالتها إلى المجتمع الجزائري، ولعل أهم شيئا اعتمدت عليه الجمعية هو الشمولية، فلم تكن جمعية العلماء متركزة في منطقة واحدة، أو في مركز العاصمة وفقط، فمن المحاسن والايجابيات التي تحسب لها أنها وصلت إلى اقصى نقاط القطر الجزائري وضحى رجالها بكل ما يملكون من أجل الهدف المنشود وهو إعادة المجتمع الجزائري الى روحه الاسلامية ولغته العربية وهويته الجزائرية الأمازيغية

الحرة.

ومن أبرز الوسائل التي اعتمدت عليها الجمعية هي كالتالي:

1- التعليم:

إن أزمة الحركة الاصلاحية في نشر التعليم كبيرة جدا وذلك بسبب الهجمة الاستعمارية التي تعقب كل عمل يدعوا الى نشر التعليم، ولعل قبل نشأة الجمعية ظهرت هناك في بلدة تبسة جمعية جزائرية تسمى بالجمعية الصديقية وقامت هذه الجمعية بتأسيس مدرسة تعتبر من أول المدارس العربية العصرية في الجزائر وكان ذلك سنة 1913م، ولكن المعمرين والفرنسيين لم يتقبلوا ولم يستوعبوا ان يتثقف ويتعلم الجزائريون بطريقة عصرية، فأرسلوا بلاغا مستعجلا إلى الوالي العام بقسنطينة يعلمونه بخطورة هذه المدرسة على الفرنسيين فجاء القرار بغلق تلك المدرسة، ولم يتوقفوا عند هذا الحد فلقد قاموا باغتيال الشيخ عباس بن حمانة صاحب هذا المشروع الثقافي والعلمي الاصلاحي في تبسة[25]، وأردت ادراج هذا المثال حول المخاطر التي كان يتعرض لها رجال الاصلاح، والتي تصل أحيانا الى حد القتل والاغتيال، فالطريق الاصلاحي لم يكن طريقا مفروشا بالورود وسهل المنال كما نعتقد.

ولما أردك العلماء وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس حاجة الأمة إلى المدارس والنوادي والصحف التي تعمل على تزكية النفوس ورفع الجهل عن العقول فقد هيأ الله لهم أهل الخير فأصلحوا شؤون الطلبة وأسسوا أزيد من 400 مدرسة مبثوثة في جميع أركان القطر الجزائري، تؤدي الرسالة بوفاء وصدق ووعي، وهيأ عليه رحمة الله جيشا كبيرا من المعلمين والوعاظ والصحفيين الذين كان لهم الفضل بعد الله عز وجل في إحياء وترميم ما هدم وأمات الاستعمار[26].

ومن أبرز الأعمال في هذا الميدان هو تعليم الفتاة والمرأة، فقد حملت الجمعية على عاتقها مهمتين، فالمهمة الاولى هي اقناع المجتمع بضرورة ارسال البنات الى مدارس الجمعية، وهي مهمة ليست بالسهلة بحكم أن المجتمع أحجم عن ارسال البنات إلى المدارس منذ عشرات السنين بسبب الحالة الاستعمارية، والمهمة الثانية هي كيفية التكفل بالمرأة وتدريسها وتخصيص الوقت والمكان لها، وهو ما توصلت اليه الجمعية ونجحت فيه.

وقد قام علماء الجمعية ومؤطروها إلى رسم خطة للتعليم العربي بعد انتشار رغبة ملحة إلى طلب العلم في المسلمين، وحثوا الناس على التعلم صغارا وكبارا، وكذلك اهتموا بتعلمي البنين والبنات، وبذلك بدأت الجمعية بفتح مدارس عربية حرة غير خاضعة للرقابة الحكومية، وكان تعليمها مدرسيا ومن أهم هذه المدارس التي كانت على شكل جمعيات إصلاحية هي جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي كانت تهدف إلى نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين، وبلغ عدد مدارس الجمعية 70 مدرسة موجودة في العاصمة وقسنطينة وتلمسان وبقدر عدد تلاميذها عام 1935م هو 30 ألف فتى وفتاة[27].

وكانت الجمعية أيضا تقيم المؤتمرات حتى تناقش قضية التعليم العربي ووسائل نشره وخصوصا قضية تعليم الفتاة المسلمة، وقد تزايد عدد المتمدرسين نظرا للاهتمام الكبير من الجمعية منذ تأسيسها إلى سنة 1937م إلى 150 ألف تلميذ وتلميذة رغم المضايقات الإدارية التي كانت تتعرض لها والاضطهاد العنيف الذي تعرض له معلمو هذه المدارس[28].

ولهذا تحملت الجمعية كل الظروف والصعاب من أجل تعليم المجتمع الجزائري ذكورا وإناثا، وكبارا وصغارا، ووجه الشيخ عبد الحميد ابن باديس جهوده

في هذا المضمار، فواجه بكل جرأة التقاليد والأعراف التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري حينها، والتي تحتقر المرأة وتمنعها من التعليم وتبقيها في أجواء الجهل والخرافة، حيث قم بحملات توعية لأولياء البنات لإقناعهم بتعليم بناتهن، ويسر لهم كل السبل ليفعلوا ذلك، فعندما أنشأ مدرسة التربية والتعليم الإسلامية أعلن صراحة أن التعليم فيها للبنات مجاني مهما كانت الوضعية الاجتماعية لهن ولأسرهن، وذلك تشجيعا على الإقبال على الدراسة والمواظبة عليها، وأما الأولاد فلا يعفى من مصاريف الدراسة إلا العاجزين عن الدفع فقط وهو ما جعل استجابة الأولياء كبيرة في إرسال بناتهن إلى المدرسة[29].

2- الصحافة:

أدت الصحافة دورا كبيرا ومتميزا في ايقاظ الشعوب وتوعيتها ودفعها للتمسك بمقومات وجودها وشخصيتها والدفاع عن حقوقها في الاستقلال والحرية، اذ كانت للصحافة اليد الطولى في بعث اليقظة، وإذكاء الوعي الذي ينير الطريق أما الأجيال[30].

ولقد شاركت الحركة الاصلاحية بجملة واسعة من المجلات والجرائد التي حملت في مقالاتها رسائل الاصلاح والنهضة والتعليم وكل ما يخص المجتمع الجزائري وحتى قبل أن تتأسس جمعية العلماء في سنة 1931م، أسس جملة من مشايخ الحركة الاصلاحية كالشيخ بن باديس والطيب العقبي والشيخ ابي اليقظان جرائد ومجلات كانت تعبر عن توجههم. فنجد مثلا:

جريدة المنتقد: التي أشرف عنها الشيخ عبد الحميد بن باديس وصدرت في سنة 1925م، وكانت بداية العدد الاول يوم 2 جويلية 1925، وآخر عدد هو العدد رقم 18 الصادر يوم 29 أكتوبر 1925م[31].

جريدة الشهاب: وهي أيضا كان يشرف عنها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وبدأت في الصدور منذ سنة 1925م، ولقد استمرت الشهاب في الصدور على شكل جريدة إلى غاية العدد رقم 75، لتتطور على شكل مجلة وساهمت الشهاب بقسط وافر في الحركة الاصلاحية من خلال المقالات المتنوعة في خدمة المجتمع من كل الجوانب خاصة ما يمس عقيدته ودينه ولغته، وكانت تطبع بالمطبعة الاسلامية بقسنطينة لصاحبها السيد أحمد بوشمال[32]، هذه المطبعة العظيمة التي لا نعرف عنها الكثير وتحتاج منا وقفة ومن الباحثين من أجل ابراز مزاياه على الحركة الاصلاحية وعن تاريخ الجزائري بشكل عام.

وهناك الكثير من الجرائد الأخرى الكثيرة التي صدرت عن جمعية العلماء أو عن أعلام النهضة الاصلاحية في الجزائر مثل السنة النبوية الصادرة سنة 1933م والتي تعتبر أول لسان ناطق لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تأسيسها، وكان جريدة أسبوعية تصدر كل يوم أثنين، وعبرت عن آراء الجمعية وتوجهاتها، وكانت تطبع بالمطبعة الاسلامية وكان يشرف عنها عبد الحميد بن باديس ويرأس تحريرها الشيخان الطيب العقبي والشيخ محمد السعيد الزاهري، وبعد غلقها من طرف الاستعمار، تم اصدار ثاني جريدة في نفس السنة وهي جريدة الشريعة النبوية المحمدية، وتولاها نفس الطاقم الذي كان يشرف عن جريدة السنة النبوية، لتأتي أيضا في نفس السنة جريدة الصراط السوي، لتكون بعد ذلك جريدة البصائر هي الوعاء الذي جمع شمل أفكار وآراء جمعية العلماء بعد غلق الاستعمار لجرائدها الكثيرة، فاستمرت البصائر من سنة 1935م الى سنة 1939م، وتولى الاشراف عنها في بادئ الأمر الشيخ الطيب العقبي وصاحب امتيازها الشيخ محمد خير الدين، وكانت تطبع المطبعة العربية. وهي تعد من أكبر الصحف الجزائرية العربية شهر وانتشارا

وقدمت للحركة الاصلاحية الكثير في هذا الميدان الصحفي والاعلامي والاصلاحي[33].

وقبل المرور إلى العنصر الثاني لا يمكن لنا الحديث عن الصحافة الجزائرية والصحافة الاصلاحية من دون ذكر شخصية الشيخ ابي اليقظان رائد الصحافة في الجزائر، هذا المناضل الصحفي الذي صارع الاستعمار من خلال جرائده المتعددة التي كلما يصادر الاستعمار أحدها ينشئ الشيخ جريدة أخرى، حتى وصلت 7 جرائد متتالية في ظرف عشرة سنوات وهي كالتالي: (وادي ميزاب- ميزاب- المغرب- الأمة- النور – البستان- النبراس), وكانت أول جريدة له هي جريدة وادي ميزاب والتي صدرت في سنة 1926م وتطبع في تونس وتوزع بالجزائر، ثم سعت الادارة الاستعمارية لتوقيف جريدته وعدم طبعها بتونس ثم بدأ يصدر جرائدة من الجزائر وفي كل مرة تتوقف واحدة ليصدر التالية وهكذا قام بمجهود ضخم في خدمة الصحافة الاصلاحية الجزائرية وخدمة كل القضايا العادلة الجزائرية[34].

ج- تأسيس الجمعيات:

لعل من أبرز وسائل الجمعية ما ذكرناه في النقطتين السابقتين وهما التربية والتعليم ومجال الإعلام بشتى انواعه سواء من خلال الجرائد والمجلات أو حتى من خلال المطبوعات الأخرى التي كان يصدرها علماء ومشايخ الجمعية المتمثلة في كتب ودواوين ونشريات وغيرها.

ولكن الجمعية ركزت أيضا على نشر رسالتها وفتح فروع لها في مختلف ربوع القطر الجزائري، وذلك لكي تعم رسالتها كل الأصقاع الجزائرية، وأيضا كان ايمان الشيخ عبد الحميد بن باديس بأهمية العمل الجماعي كبيرا، ودعا إلى انشاء جمعيات منظمة تجمع الطاقات وتوحد الصفوف وتوجه الجهود وتتولى الاصلاح، وفي هذا يقول « انما ينهض المسلمون بمقتضيات ايمانهم بالله ورسوله اذا كانت لهم قوة، وانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكر وتدبر، وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة في العمل على فكرة وعزيمة»، ويذكر العديد من الباحثين والمؤرخين أن للشيخ دورا بارزا في تأسيس الجمعيات المتنوعة، سواء أكانت علمية أم شبابية أم تجارية أم خيرية، كإسهامه في تأسيس الكشافة الاسلامية الجزائرية، واختارته بعض الأفواج رئيسا شرفيا لها، واسهامه أيضا في جمعيات الطلبة الجزائريين الزيتونيين، واسهامه في جمعية الشباب الفني، واختير الشيخ رئيسا شرفيا لها، ولها عناية بالفن التمثيلي للدعوة إلى محاسن الأخلاق وتجنب مساوئها، واسهامه في جمعية تجار قسنطينة لكسر السيطرة اليهودية على التجارة والصناعة[35]، وغيرها كثير في هذا المضمار، فلقد سعى الشيخ إلى نشر الوعي الجماعي لدى المجتمع الجزائري.

إلى جانب كل هذه الوسائل والأساليب كانت هناك الكثير لم نذكرها لتركيزنا عن أهمها وأشملها، فلقد قام الشيخ أيضا على سبيل المثال رفقة زملاءه من العلماء والمشايخ بالقيام بالعديد من الرحلات عبر مختلف ربوع الوطن من أجل التذكير ونشر الرسالة الحضارية الاسلامية العربية، ومن اجل فتح النوادي والمدارس وترسيخ الوطنية في نفوس الجزائريين، فقام الشيخ برحلات مكوكية طويلة جاب فيها الشرق والغرب والشمال والجنوب وطاف في عمق المجتمع الجزائري من أجل ايقاظ الضمير الجزائري من سباته واشعال فتيل الثورة الثقافية والعلمية التي سوف تأسس لعمل ثوري مسلح روحه الدين والعقيدة السليمة.

أثار المشروع الحضاري للجمعية على المجتمع الجزائري

ان الحديث عن آثار المشروع الحضاري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لا يمكن حصره أو حده

في سطور، فنحن نلمس تلك الآثار في كل جانب من الجوانب التي أسستها الجمعية وعملت على نشرها، فها هي المدارس تفتح العقول وتنورها، وها هي الصحافة تنشر الوعي الثقافي والعلمي والديني في كل ربوع الجزائر، وتلك الرحلات التي قام بها عبد الحميد بن باديس وكل رجال الجمعية من أجل نشر رسالة الجمعية وأيضا نشر العقيدة السليمة والاسلام الصحيح، وتلك الارساليات الكثيرة من البعثات العلمية نحو المشرق العربي وتونس، وأثرها الكبير في النهضة الفكرية والاصلاحية ثم في الثورة التحريرية، فالحديث عن أثار المشروع الحضاري لجمعية العلماء طويل وعميق جدا، وعندما تحدثنا سابقا عن وسائل جمعية العلماء في خدمة المجتمع يستطيع القارئ الكريم أن يدرك تلك الآثار من خلالها.

ومع بداية الثلاثينيات بدأ التنوير الثقافي والسياسي الوطني يتجلى في صورة نهضة كبيرة بأجلى مظاهرها، في قيام المدن المختلفة بتأسيس المدارس القرآنية الحديثة وابتناء المساجد والاقبال على التعليم، وتأسيس النوادي العامة، بحيث نشاهد جل المدن الجزائرية تعيش تلك النهضة الثقافية والدينية والسياسية الجديدة[36].

وفي ميدان تعليم البنات أيضا ظهرت العديد من النتائج الطيبة والمحمودة التي تحسب لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث انه في سنة 1947م اشترت جمعية العلماء المسلين قطعة أرض بجانب دار الحديث، وبنيت عليها مدرسة تابعة لها، فسمتها مدرسة عائشة نسبة لأمنا عائشة زوج رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكانت أول مدرسة تبنى في الجزائر لتعليم البنات، وكان الافتتاح يوم الأحد 11 ماي 1952م بحضور الشيخ الإبراهيمي، وأقيم بهذه المناسبة حفلا عظيما للافتتاح، حضرت له حوالي 800 امرأة، وقد حضر الشيخ العربي التبسي والشيخ السعيد الزموشي، حيث أكدا في خطابهما على ضرورة منح المرأة حق التعليم وعدم التضييق عليها من أجل ذلك، وقد وجه العربي التبسي نداء لكل الحاضرين ولكل سكان تلمسان من أجل جمع الأموال لتسديد الديون المترتبة على إنشاء المدرسة، وقد جمع خلال حفل الافتتاح 750.000 فرنك، ولقد كان عدد أقسامها 4 عند الافتتاح يضم كل قسم 45 تلميذة[37]، وسوف أترك الحديث للشيخ حمز بوكوشة الذي كتب مقالا مطولا حول الحفل الذي أقيم اثر افتتاح مدرسة عائشة أم المؤمنين فيقول: «... جرنا إلى هذا والحديث ذو شجون افتتاح مدرسة عائشة بتلمسان، وتلمسان من عواصم الإسلام العلمية في القديم، ولها فضل الأسبقية في تأسيس هذه المدرسة النسوية من بين مدن القطر، وكأن الله خصها في العصور الإسلامية بجمهرة من العلماء والأدباء والحكماء، ادخر لها في العصر الحاضر مفخرة علماء الجزائر، أستاذنا محمد البشير الابراهيمي، فعندما تأسست جمعية العلماء وبعثت بأعضائها إلى المدن والقرى، اقتضى نظر أبي النهضة الجزائرية الأستاذ الإبراهيمي من نصيب تلمسان، فبعث الحركة العلمية فيها من مرقدها وأسس بها مدرسة دار الحديث التي خرجت نخبة من فتيان الجزائر وفتياتها، وفي هذا الأسبوع بتوجيه سابق من الأستاذ الابراهيمي تأسست مدرسة عائشة ملاصقة لمدرسة دار الحديث، وحي خاصة بالبنت المسلمة، وكان يوم افتتاحها الأحد 11 ماي، فأتى صاحب الفضيلة الرئيس الثاني لجمعية العلماء ومدير معهد ابن باديس الشيخ العربي التبسي بدعوة من الأئمة لفتح المدرسة، وفد على تلمسان يوم السبت فاقبلنه بباب مدرسة الحديث تلميذات المدرسة ينشدن:

مرحبا أهلا وسهلا برئيس العلماء

... وأتى وفد بلعباس تصحبه بعض تلميذات مدرسة التربية والتعليم، وقدمن باقة من الزهور على شكل هلال ونجمة إلى تلميذات مدرسة دار

الحديث، مع تحية رقيقة، فردت تلميذات مدرسة دار الحديث التحية بأحسن منها...»[38].

ونجد أن احدى تلميذات مدرسة عائشة تكتب في جريدة البصائر موضوعا تحت عنوان « التعليم وحظ المرأة منه» ومما جاء فيه: «... يالها من جمعية تبشر بمستقبل سعيد، وورد المجد التليد، إن أول ما بدأت به هذه الجمعية هو تعليم المرأة التي حرمت من هذا الحظ منذ زمن طويل، فما كان الا انتاج بنات عالمات متألما لحالة مجتمعهن معاهدات الله والوطن على القيام بالرسالة وتبليغها على أكل وجه...، وأنزع كل حصى تعارضني في طريق لأبلغ مقصودي، وسأقدم النفس والنفيس في هذا السبيل، أيها الظلام أقفل راجعا خائبا فقد طلع الصباح والواجب صاح، لا مقام لك، اننا مستعدات لمحاربتك، اننا قائدات مسلحات حاملات راية العلم...، نحن شبلات جمعية العلماء السائرات على منوالها والقائمات بكل ما قامت به...»[39].

واستمرت مدرسة عائشة أم المؤمنين في أداء رسالة التعليم إلى غاية اندلا ع الثورة التحريرية، وكان عدد أقسامها تسعة، ونظرا لكثرة التلاميذ بدار الحديث ومدرسة عائشة، وصل عددهم إلى ألفين تلميذ وتلميذة، ففكرت الجمعية بشراء أرض في حي مشكانة وبنيت مدرسة متكونة من 16 قسم سنة 1954م، لكن قرار الإغلاق جاء في حق مدارس الجمعية شملها هي أيضا في سنة 1956م[40].

وأيضا وفي خضم المعركة الاصلاحية التي كانت تخوضها جمعية العلماء ضد الطرقيين وشيوخ الزوايا الموالين للاستعمار، أثمرت الجهود المبذولة لمحاربة الطرق الصوفية خصوصا عن طريق نشر العلم والدعوة للإصلاح السلفي في النصف الأول من الثلاثينيات وفي نصفه الثاني أصبح القطر الجزائري يكاد لا يخلو بيت من بيوته ممن يدعوا الى الاصلاح وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولي والعملي وأصبحت البدع والضلالات تجد في عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها»[41].

ولعل كل هذه الاصلاحات الثقافية والفكرية والعقدية واللغوية هي التي مهدت الطريق للوعي الحضاري للمجتمع الجزائري، وهي التي فتحت باب المطالبة بالحقوق بعد أن فقه الجزائريون أمر دينهم ووطنهم ولغتهم وترسخت لديهم الهوية والانتماء التي دعا اليها الشيخ ابن باديس عندما قال شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب، حتى أننا نجد من جيل نوفمبر المجيد ومن مفجري الثورة التحريرية ورموزها هم من رواد جمعية العلماء ومن خريجي مدارسها، وكانت دعوة جمعية العلماء للتحرر والحرية صريحة منذ ان تأسست فربط ابن باديس التحرر بالحق الانساني الذي لا نقاش فيه، فمن خلال هذه الاصلاحات العظيمة وصلت الفكرة الجزائرية لمرحلة لا رجوع منها ألا وهي فكرة الحرية والاستقلال[42].

وفي سنة الاستقلال تذكر الاحصاءات لسنة 1962م أن 4% من الجزائريين الذين تعلموا في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانوا يتحكمون في اللغة العربية ويتقنونها فالجمعية خلال 30 سنة من نشاطها التعليمي والثقافي قد حققت نصف النتيجة التي حققها الاستعمار خلال 120 سنة إذ نجد 15% من الذين تلقنوا الفرنسية منهم 8% يتحكمون في اللغة الفرنسية ويتقنونها كلاما وكتابة[43].

الخاتمة:

إن الحديث عن دور جمعية العلماء في الرسالة الاصلاحية والحضارية في المجتمع الجزائر تحتاج للكثير من الوقفات والدراسات، ويجب تخصيص عدة دراسات لتشمل مجموعة من المواضيع التي يمكن استنباطها في حاضرنا والتعامل معها برؤية تجديدية معاصرة، وربما في الأخير نستطيع أن نستخلص جملة من النقاط:

– قام الاستعمار الفرنسي في الجزائر بكل الطرق والوسائل بتحطيم الحياة الثقافية والعلمية في الجزائر، من خلال غلق المدارس وتحويل المساجد الى كنائس وغيرها وارسال حملات من رجال الدين لنشر المسيحية والرسالة الصليبية وغيرها من الوسائل لقمع المجتمع الجزائري فكريا وحضاريا.

– كانت الاحتفالات بالذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر بمثابة الصدمة الحضارية التي استفاق منها الجزائريون، وكانت عبارة عن حدث مفصلي في تاريخ الجزائر والحركة الاصلاحية والسياسية والثقافية.

– أن جهود جمعية العلماء الجزائريين في الميدان الثقافي وفي مشروعها الحضاري لم يكن وليد تلك السنوات، وانما جاء ليتمم ما بدأته الكثير من الأسماء والشخصيات العلمية الجزائرية التي سبقت جمعية العلماء وأعلامها.

– لم يكون طريق المشروع الحضاري لجمعية العلماء مفروشا بالورود وسهلا، بل لاقى العلماء في جراءه الكثير من المتاعب والصعاب، فلقد قام الاستعمار الفرنسي بالكثير من المحاولات من أجل اجهاض مشاريع الجمعية ورجال الاصلاح.

– تمثل وسائل جمعية العلماء في خدمة رسالتها النهضوية في التربية والتعليم، وفي الصحافة ونشر العقيدة الصحيحة والسليمة الخالية من الشوائب والزوائد في الدين.

– نستطيع القول أن جمعية العلماء نجحت وبكل فخر في رسالتها الحضارية في تلك الفترة، وذلك نظرا للوسائل اليسيرة التي كانت متوفرة لديها، وايضا للظروف الاستعمارية الصعبة، وأيضا للوضع الجزائري بشكل عام الذي تزعمته الطرق الصوفية والخرافة والبدعة، فكانت كل هذه الظروف عائقا في سبيل نشر رسالة الجمعية، ولكن تم في آخر المطاف بعد جهود حثيثة ومواقف شجاعة من طرف زعماء الاصلاح للوصول الى المراد الذي ارادوه وهو اخراج الشعب الجزائري من ظلمات الجهل والخرافة الى نور العلم والاسلام الصحيح.

الهوامش

1 – أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2008م، ص14.

2 – للمزيد حول دور مؤسسات الوقف في الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني وبدايات فترة الاحتلال ينظر: ناصر الدين سعيدوني: الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2013.

3 يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية(1830ـ 1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 66_67.

4 إيفه بربستير: في الجزائر يتكلم السلاح، نضال الشعب من أجل التحرير، ترجمة عبد الله كحيل،ط1، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1989، ص67.

5 – أحمد طالب الإبراهيمي: من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 17.

6 رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986، ص320.

7 – محفوظ قداش: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، تر: أمحمد بن البار، دار الأمة، الجزائر، 2011م، ج1، ص337.

8 – محمد الأمين بلغيث: تاريخ الجزائر المعاصر دراسات ووثائق، دار مدني، الجزائر، 2009م، ص–ص119-118.

9 – الياس نايت قاسي: الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر: وأثرها على الحركة الوطنية الجزائرية، إشراف: عمر بن خروف، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، الموسم الجامعي: 2002/2003م، ص105.

10 – أحمد طالب الابراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ط1، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1997م، ج5، ص278.

11 – نور الدين ابو لحية: جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، ط1، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، الجزائر، 2015م، ص–ص 37- 38.

12 – أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ط4، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1992م، ج3، ص–ص84-83.

13 – نور الدين أبو لحية: المرجع السابق، ص–ص39-38.

14 – عبد الرحمن شيبان: من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، الجزائر، 2009م، ص18.

15 – نور الدين أبو لحية: المرجع السابق، ص–ص43-42.

16 – مولود عويمر: تراث الحركة الإصلاحية الجزائرية، ج1، ط1، دار قرطبة، الجزائر، 2011م، ص–ص381- 384.

17 – عبد الرحمن شيبان: المصدر السابق، ص–ص17-14.

18 – عبد الرحمن شيبان: المصدر السابق، ص–ص19-18.

19 – مركز البحوث والدراسات: التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد بن باديس، الرياض، 1435هـ، ص 92.

20 – محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص138.

21 – مركز البحوث والدراسات: المرجع السابق، ص99.

22 – مركز البحوث والدراسات: المرجع السابق، ص107.

23 – نور الدين ابو لحية: المرجع السابق، ص-ص52-51.

24 – محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص130.

25 – محمد الأمين بلغيث: فصول في تاريخ الجزائر المعاصر، بحث غير منشور (مخ)، ص-ص (121-120).

26 – محمد الأمين بلغيث: تاريخ الجزائر المعاصر، المرجع السابق، ص133.

27 – أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص-ص 220-200.

28 – رابح تركي: المرجع السابق، ص 155.

29 – جمال زواري أحمد: الدور الإصلاحي للإمامين عبد الحميد بن باديس وحسن البنا دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: محمد السعيد عقيب، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، 2014/2015م، ص-ص178-177.

30 – حيدر سعد جواد الابراهيمي: مجلة الشهاب الجزائري ورؤاها الاصلاحية (1939-1928)، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الاسلامية، ع:13، السنة السابعة، 2013، العراق، ص276.

31 – المنتقد، جريدة سياسية تهذيبية انتقادية، دار الهدى، الجزائر، 2009م.

32 – مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، تح: أحمد حمدي، منشورات مؤسسة مفدي زكرياء، دار هومة، الجزائر، 2003م، ص-ص91-88.

33 – عبد الواحد هالة وآخرون: الصحافة الاصلاحية في الجزائر وموقف الادارة الاستعمارية منها (1931-1939)، مذكرة لنيل شهادة الليسانس، اشراف: عثمان زقب، المركز الجامعي بالوادي، الموسم الجامعي: 2012/2013، ص-ص33-26.

34 – مفدي زكرياء: المصدر السابق، ص-ص-166 167.

35 – نور الدين ابو لحية: المرجع السابق، ص-ص146-145.

36 – ابراهيم مهديد: الدور الاصلاحي والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الابراهيمي على نهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار القدس العربي، الجزائر، 2015م، ص16.

37 – عبد الرحمان بن بوزيان: دار الحديث ودورها في الحركة الإصلاحية بتلمسان 1956-1937، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2013، ص179.

38 – مولود عويمر، المرجع السابق، ج2، ص-ص327-324.

39 – زليخة عثماني "التعليم وحظ المرأة منه" البصائر ع93، 31أكتوبر 1949، ص6.

40 – عبد الرحمن بن بوزيان، المرجع السابق، ص179.

41 – ابراهيم مهديد: المرجع السابق، ص19.

42 – عبد القادر عزام عوادي، لقاء مسجل مع اذاعة بومرداس الجهوية، يوم 7 اكتوبر 2016م.

43 – رابح دبي: السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين في الدر عليها -1830 1962م، رسالة دكتورا في علوم التربية، اشراف: الطيب بلعربي، جامعة الجزائر، 2010/2011م، ص168.